البعد اللساني في نظرية المعرفة عند ابن خلدون

د. أحمد قاسم كسار الجنابي
كلية العلوم الإسلامية / جامعة الأنبار

المقدمة

الحمد لله الذي شرّف لغتنا العربية بالقرآن ، واعزنا بالإسلام وأكرمنا بالإيمان ، وجعل الانتماء إلى امتنا باللّسان ، وفضّلنا على سائر الناس في النطق والبيان ، وهيّأ رجالًا وأجيالًا صانوا لغتهم بالقلم ودافعوا عن دينهم بالسِنان ، فكان أفصح من نطق بالضاد نبيهم سيّد الإنس والجان ، صلى الله عليه وسلّم في كل زمان ومكان ، ورضي الله – سبحانه وتعالى – عن آله وأصحابه أولي الهجرة والإيمان ، ومن تبعهم وسار على نهجهم إلى يوم العرض والميزان .

وبعد :

فقد اخترت هذا البحث وكتبته لسببين :

الأول : أن العالم العربي والإسلامي اصطلح على عامنا هذا (٢٠٠٦م) ست وألفين للميلاد أنه عام ابن خلدون وذلك تجديداً لذكراه المأوية التي تطل علينا ؛ فأردت أن أشارك مع المشاركين دولياً وأهتم مع المهتمين بشخص يعد من أبرز علماء الأمة ومفكريها ومصلحيها .

الآخر : أن صلتي بعلماء المغرب الإسلامي صلة قوية وقريبة فأما قوتها ففي أصحابها الذين كانوا موسوعيين في علومهم ومعارفهم فتجد الواحد منهم قد برع في أكثر من فن وكتب وصنف في مجالات علمية عدة ، وهذا ما يجد الباحث نفسه أمام رصانة علمية من الصعب أن يلجها إلا بتوفيق من الله تعالى .

وأما قربها فإنني قد تناولت في العام الماضي أطروحة الدكتوراه التي ناقشتها والتي تناولت فيها واحداً من علماء المغرب ألا وهو : القاضي عياض وجهوده اللغوية .

ولا شك أن بحثنا هذا يسهم في بناء شخصية ابن خلدون من الجانب اللغوي والكشف عن أهمية البعد اللساني في نظرية المعرفة المشهورة التي تبناها .

فهو جزء من الأبعاد المعرفية في فكر ابن خلدون ، وهو عنصر من عناصر الرؤية الكلية لابن خلدون فيما يخص قضايا المعرفة ، وما يتعلق بالكون والإنسان والحياة والدين ، هذا إذا علمنا أن اللغة مصدر من المصادر المعرفية والروافد الفكرية في نظرية ابن خلدون .

ومن الجدير بالذكر – أيضًا – أن هذا البحث ، أو هذه الجزئية من فكر ابن خلدون لها ارتباط وثيق بمحاور أخرى ، فقد ربط ابن خلدون اللغة بالتأريخ والاجتماع والعمران والفكر ، فضلًا عن أن اللغة هي مفتاح العلوم للمصادر الإسلامية الأصيلة التي لها رؤية خاصة عن ابن خلدون .

هذا وقد قسمت بحثي على خمسة مطالب رئيسة تنوعت ما بين ملكة اللسان واللغة والنحو والبيان والأدب كل ذلك بعد المقدمة والتعريف بابن خلدون والتمهيد الذي سبق المطالب والمتعلق بمفهوم البحث وأهميته ومنهجيته .

ختامًا :

فإني أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يتغمد علماء أمتنا برحمته ، وأن يحفظ الأحياء منهم بحفظه ورعايته ، وأن يبارك في أعمارنا وأعمالنا إنه سميع مجيب .

الباحث

التعريف بابن خلدون

حياته :-

هو عبد الرحمن بن حسين بن خلدون ولد بتونس في عام ٧٣٢هـ الموافق ١٣٣٢م ، يرجع لأصل يماني حضرمي، وكانت حياته طويلة وحافلة بالإسفار والتغيرات، ولقد شغل عددا كبيرا من الوظائف والمناصب السياسية والعلمية والقضائية ،إذ كانت تونس في تلك الفترة مركزا للعلماء والأدباء في المغرب فدرس عليهم العلوم الشرعية، وكذلك درس العلوم الإنسانية ونبغ في الشعر والفلسفة والاجتماع والمنطق مكتسبا بذلك إعجاب أساتذته .

وقد تجمعت عند ابن خلدون ثروة طائلة من العلوم والمعرفة بنواحيها المختلفة وذلك بسبب (١) :-

خبراته الواسعة في ميادين السياسة.

لخدمته في معية الملوك والأمراء.

لكثرة أسفاره وتنقلاته بين الدول المغربية والأندلس.

لقراءته ودراسته في كل فرصة تسنح له.

مكانة العلم عند ابن خلدون :-

يعد العلم عند ابن خلدون أمراً طبيعياً في العالم البشري لأن (٢) :-

لأن الإنسان يتميز عن الحيوان بالفكر.

بالفكر يهتدي ليحصل على معاشه ويتعلمه .

بمعرفة ما جاء به الأنبياء يصلح أخرته.

وان لابد للعلم من التعلم.

---

(١) ينظر : تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون : ٤٤ .

(٢) ينظر : موسوعة الفكر التربوي العربي الإسلامي (ابن خلدون) : ١٩ .

والاستيلاء عليه إنما هو ملكة، وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق، وتكون هذه الملكة هي في غير الفهم والوعي.

التمهيد

أولًا : مفهوم البحث وأهميته

إن المتتبع لتأريخ الحضارة الإنسانية على مرّ العصور وتعاقب الدهور ، يجد أن الأمم اهتمت كثيرًا بمعلوماتها ، وعدت التمييز بين الصحيح والخطأ معرفة ، فكان مصطلح (المعرفة) متجددًا في مراحله ، فقد وضع (الإغريق) للمعرفة صفات معينة ، وطوّر (أفلاطون) موضوعاتها وهكذا .

ولعلّ في قصة ابني آدم التي ذكرها القرآن الكريم (١) ، فهي خير مثال لاختزان المعرفة وتوظيفها في المواقف ، فكانت تجربة (الغراب) مدرسة للمعرفة المستمرة إلى يوم الدين .

والأمة الإسلامية شاركت الأمم في هذا الاهتمام ، واستخدمت المصطلح ذاته في قاموس لغتها ، وجعل الإسلام بين (العلم) و (المعرفة) عمومًا وخصوصًا .

فالعلم أعم موردًا وأخص تعلقًا ، والمعرفة أعم تعلقًا وأخص موردًا ، ويظهر الفرق بينهما في أن المعرفة لا بد وأن تكون مسبوقة بجهل ، فلا يقال : (هل عرفت كذا ؟) إلا إذا كان يجهله من قبل ، بخلاف العلم فليس شرطًا أن يسبقه جهل ، ويدل لذلك أن الله – تبارك و تعالى – لم يوصف بالمعرفة ، ولكن يوصف بالعلم ، لسبق المعرفة بالجهل (٢) .

ويظهر أن المعرفة تتناول الذوات أكثر مما تتناول المعاني ، فيقال غالبًا : عرفت الدار ، وعرفت الرجل ، وعرفت الطريق ... الخ ، ولا يقال : علمت الدار أو الرجل أو الطريق في الفصيح .

وهذا هو عين الاستعمال القرآني وأسلوب التعبير البياني المعجز في قوله – عزَّ وجلَّ – ﷻ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول ﷻ (٣) ، فأطلق لفظ المعرفة في الآية الكريمة على معرفة الذوات .

وقد امتازت الثقافة الإسلامية بعمقها في العلوم والمعارف ، وامتاز الكثيرون من أكابر علماء العرب والمسلمين لمحبتهم للعلم وشغفهم بالمعرفة ، وتخصص آخرون بالبحث عن الحقائق العلمية ، وطلبهم للحق ، وعدم الاستسلام للخطأ ، أو الاعتراف به إذا ظهر لهم وجه الصواب ، وقد وصفوا بالجديّة في عملهم والإتقان فيه ، واعتمادهم مناهج وأسس علمية في طريقهم المعرفي .

---

(١) سورة المائدة : الآيات : ٢٧ – ٣١ .

(٢) ينظر : العلم والعلماء : ١٢ .

(٣) سورة محمد : ٣٠ .

وكان منهم العلامة عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨ هـ ، فقد شارك أمته في هذا المجال ، وكان مجددًا في نظرته الفلسفية ورؤيته الحضارية تجاه الأخبار والمعلومات المعرفية من خلال أبعاد ثلاثة (١) :

فيما يتعلق بعلاقته بماضيه .

فيما يتعلق بعلاقته بعصره ومحيطه .

فيما يتعلق بمستقبل الحضارة الإنسانية من بعده .

ولما كانت نظرة الإسلام كلية عن الحياة والكون والإنسان وعن علاقتها جميعها بما قبل الحياة الدنيا وما بعدها ؛ كانت المعرفة جزءًا من هذا الكل الكبير العظيم بعظمة الخالق – سبحانه – .

فقد وضع ابن خلدون أسسًا لنظريته ، وأثار في بدء مناقشته لموضوعاتها مسائل تتعلق بوظيفة اللسان ، ودور اللغة والأداء الدلالي ، وأثر البعد اللساني في الفكر العربي وأصوله ومصادره .

ومن هنا أخذت (اللغة) وأداتها (اللسان) مجالهما في فكر ابن خلدون بوصفها المدخل لفهم المعرفة ، أو هي لسان المعرفة – إن صحّ التعبير – وإن إيصال الفكرة لا تتم إلا عن طريقها ، وأنها الوسيلة للدلالة .

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله – تعالى – : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبئهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ (٢).

فهذه الآية تدل على أن المعلومات السابقة لا بد منها للوصول إلى المعرفة (٣) ، فالله – سبحانه وتعالى – علّم آدم الأسماء التي هي المعلومات السابقة للمسميات ، والمقصود منها في الآية هو العلم بالألفاظ من حيث الدلالة المتوقف على العلم بالمعاني (٤) .

لذا صار لزامًا من الاهتمام بلغة المعرفة ، ولغة معلوماتها ؛ لكي تتم فيها العملية العقلية وما يتعلق بها من الإدراك ، ثم فهم الدلالة ، أو فهم الحقيقة كما هي ؛ لأن فهم معنى (كلمة) هو كفهم معنى (واقع) (٥) .

فالتراث اللغوي الذي انقدحت شرارته التاريخية الأولى في صلب حضارة العرب عِرقا ولسانا ، وأفرزتْ مادتَه على مسار القرون حضارةُ الإسلام عقيدةً ، فكانت دائرةُ التلاقي والتقاطع مركزُها اللغة ، لقد زخر هذا التراث الممتد في

---

(١) ينظر : نظرية المعرفة في مقدمة ابن خلدون : ١٠ .

(٢) سورة البقرة : ٣١ – ٣٣ .

(٣) ينظر : التفكير : ١٤ .

(٤) ينظر : تفسير البيضاوي : ١ / ٥١ .

(٥) ينظر : التفكير : ١٩ .

منطوقه ومضمونه بتساؤلات مبدئية حول ديمومة لقاء الإنسان باللغة منذ البدء وتضمن كنوزا من النظريات في شرايين المعرفة بالله والإنسان والكون ، لا يمكن فتحها إلا باللغة ولا يتأتى استبطانها إلا بالعربية ...

فاللغة عنصر مهم في العلم والمعرفة سواء ما كان منها علما دقيقا أو معرفة نسبية أو تفكيرا مجردا ، فباللغة نتحدث عن الأشياء ، وباللغة نتحدث عن اللغة ، فكان طبيعيا أن تستحيل اللغة مولدا لشتى المعارف ، فهي كلما التجأت إلى حقل من المعارف اقتحمته وغزت أسسه حتى يصبح ذلك العلمُ نفسُه ساعيا إليها ، اقتحمت الأدب والتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع ، ثم اتجهت صوب العلوم الصحيحة فاستوعبت علوم الإحصاء ومبادئ التشكيل البياني ومبادئ الإخبار والتحكم الآلي وتقنيات الاختزال وعلم الرياضيات الحديثة .

ثانيًا : مفهوم منهجية البحث من منظور لغوي

لم يغفل ابن خلدون عن حقيقة البعد اللساني وأثره المعرفي ، فرأى أن استقراء اللسان يمثل ثابتة في الفكر العربي ، بل هو أم الثوابت التي تمثل النموذج الأوفى للسمة الاختبارية ، وقد لا يخفى اليوم عن أحد أن الذي يحدد قوام الحداثة في حقل العلوم الإنسانية الراهنة إنما هو موقعها من اللسانيات ، وذلك أن علم اللسان قد أصبح مركز استقطاب تحتكم إليه مختلف المعارف الإنسانية سواء في مناهج بحثها ، أو في تقدير حصيلتها العلمية ، وقد كان له على صعيد فلسفة المناهج فضل إرساء جملة من المبادىء أهمها اثنان (١) :

مبدأ تمازج المعارف بغية إدراك نواميس الظواهر المتصلة بالإنسان .

مبدأ استغراق الشمول المعرفي مما جذّر الرؤية الأصولية .

وقد تنوعت مناهج العلماء المسلمين في تصانيفهم ومؤلفاتهم ، ومادة بحثنا المنهجية ستكون في تأريخ ابن خلدون ، وبالأجدر في مقدمته الشهيرة ، فقد عقد الفصل السادس من الكتاب في العلوم وأصنافها ، والتعليم وطرقه ، وسائر وجوهه ، وما يعرض في ذلك كله من الأحوال ، وكانت فيه مقدمة ولواحق (٢) .

وكان قد عقد فصولاً في علوم اللسان العربي الأربعة وهي : (٣)

اللغة .

النحو .

البيان .

الأدب .

---

(١) ينظر : الأسس الاختبارية في نظرية المعرفة عند ابن خلدون في الفكر العربي ، للدكتور عبد السلام المسدي ، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية : ١٥-١٦ .

(٢) ينظر : تاريخ ابن خلدون : ١ / ٣٥٨ – ٥٣٤ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٤٧٩ – ٤٨٧ .

قال ابن خلدون عن هذه العلوم ، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغتهم، فلابد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة.

وأشار إلى علوم اللغة العربية وبيان الصلة الوثيقة بين العلوم الإسلامية الدينية المحضة وبين العلوم العربية التي تعتبر ـ على حد قول العلماء ـ علوم الآلة والوسيلة ، ولندفع وهم من دخله الوهم فظن أنه يستطيع فهم الدين بدون واسطة علوم اللغة، أو يستطيع أن يتفقه في الشريعة دون تضلع من العربية... وكفى بذلك وهماً وضياعا، وصدق من قال:

حفظ اللغات علينا فرض كفرض الصلاة

فليس يحفظ دين إلا بحفظ اللغاتِ

وناقش ابن خلدون مسائل لغوية وأدبية تتعلق بالملكة ، والصناعة اللغوية ، ولغات العرب ولهجاتها ، والذوق ، وصناعة الشعر ، ووجه تعلمه ...الخ (١) .

وقد تعددت مناهج البحث اللغوي وتباينت اتجاهاته لتعدد الأغراض التي تدعو إلى دراسة اللغات ، فلكل غرض منهج يكون الوسيلة الأفضل لتحقيقه ، فلا يصلح غيره لأن يحل محله ، أو أن يكون بديلاً منه .

وتتباين مناهج البحث اللغوي وتتفاوت بحسب اختلاف الأهداف التي يتوخاها الباحثون من دراستهم للغة (٢) .

ومن هنا لوحظ أن العلماء القدامى أثر عنهم اشارات تعد معالم رئيسة لأغلب المناهج الحديثة والمعاصرة ، وهذا من فضل السبق المعرفي في البحث اللغوي لأولئك الأعلام .

ففي المنهج الوصفي وجدنا اللغويين العرب يأخذون بجوانب غير يسيرة منه ، وفي المنهج المعياري أوضحوا فكرتهم عنه ، وكان هذا المنهج سببًا مهمًا في حفظ اللغة المستخلصة من كلام الفصحاء ، وفي المنهج التاريخي أثر عن العرب إشارات ذكية وظهرت منه في تراثنا اللغوي ملامح بارزة لا يخطئها الدارس المنقّب ، أو الباحث الفاحص ، وفي المنهج التحويلي الذي ظهر كل الظهور في أعمال اللغويين ، وتجدر الإشارة إلى أن الغربيين قد أفادوا من التراث اللغوي العربي ، ولم يخل التراث اللغوي العربي من إشارات سريعة ومبكرة إلى مناهج أخرى مثل المنهج الجغرافي والمنهج التقابلي وغيرهما (٣) .

---

(١) ينظر : المصدر السابق: ١ / ٤٨٧ وما بعدها .

(٢) ينظر : مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة : ٨ .

(٣) ينظر : المصدر السابق .

وأما منهج ابن خلدون فهو منهج متميز يقرر أن مفتاح التصور العلمي في شأن الظاهرة اللسانيّة يأتي في مستوى التعريف الذي يحدد به اللغة ، ويستند هذا التعريف إلى كل عناصر التفكيك الاختباري ، إذ يستجمع ابن خلدون جملة من القواعد أهمها التصويت والتواصل والعقد الاجتماعي (١) .

يقول ابن خلدون : ((إعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لساني ، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان ، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم)) (٢) .

فابن خلدون قد أخضع اللغة أو اللسان إلى منهج اختباري حسّي ، وهو بذلك يجر اللغة العربية من صنف اللغات التأليفية إلى صنف اللغات التحليلية في سبيل الممارسة الحيوية لها في الواقع ومعايشتها للحياة ، ومن دلائل المنهج الاختباري (٣) تحليل ابن خلدون لظاهرة التحول اللغوي بموجب سلطان الزمن على الانسان : (الحيوان الناطق) (٤) باللسان .

وهذا المنهج سنقف عند تطبيقاته العملية في فكر ابن خلدون في الصفحات القادمة ، وأمثلة الأسس التي استند إليها في بحث ابن خلدون الأصولي في صميم الحضارة العربية والإسلامية .

المطلب الأول

ملكة اللسان

أولًا : تعريف اللسان

يعرف اللسان بأنه (٥) :

مجموعة القيم والمبادىء والقواعد الأساسية لمجتمع لغوي معين يستخدم اللغة يتكلم بها وله جانبان :

جانب أساسي وهو اجتماعي سايكولوجي مستقل عن الفرد .

جاني فرعي سايكوفيزيولوجي ، وهو الخاص بالعملية الصوتية وتعلق بالفرد الذي يتكلم اللغة .

---

(١) ينظر : الأسس الاختبارية في نظرية المعرفة عند ابن خلدون في الفكر العربي ، للدكتور عبد السلام المسدي ، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية : ٢٧ .

(٢) تأريخ ابن خلدون : ١ / ٤٧٩ – ٤٨٠ .

(٣) ينظر : الأسس الاختبارية في نظرية المعرفة عند ابن خلدون في الفكر العربي ، للدكتور عبد السلام المسدي ، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية : ٢٨ .

(٤) من الأمثلة الصناعية في الفلسفة والمنطق لموضوع الكليات الخمس وماهيتها ، ينظر : المنطق المفيد (قسم التصورات) : ٢٢ – ٢٣ .

(٥) ينظر : مباحث في علم اللغة واللسانيات : ٤٣ .

والمطلع على فكر ابن خلدون يستطيع القول إنَّ اللسان كنز يتقسمه أفراد المجتمع ، و(اللسان) مؤسسة اجتماعية ، يكتسب اكتسابًا ، في حين أن اللغة موهبة ، والكلام هو تطبيق لقوانين اللسان ، أو تنفيذ الفرد لمثل هذه القوانين ، ومن هنا كان الكلام يختص بالفرد ، واللسان يختص بالمجتمع ، واللغة تختص بالبشر جميعًا (١) .

استطاع ابن خلدون أن ينفذ بحس لساني دقيق كان يتفرد به إلى مفاعلات الاكتساب اللغوي ، متحسسا قوام الظاهرة الكلامية انطلاقا من فكرة الملكة وملابساتها التجريبية مما يجعل المقارنة ممكنة بين وجهة نظره بأسس النظريتين المهيمنتين : المعرفية والسلوكية .

ثانيًا : اللسان بين العلم والمعرفة

لقد كان ابن خلدون حريصًا على اختيار المفردات الدقيقة التي تعبر عن تصوره الكلي لنظرية المعرفة التي تبناها فكريًا ، فإذا كانت (الملكة) التي فهمها الفكر العربي قديمه وحديثه بأنها هي (الصناعة) كما أشار إلى ذلك د . تمام حسان بأن (الملكة) والتي تعني : التمرن ، وهي ما يصطلح عليه العلماء بـ(الصناعة ، ويقابل الصناعة في الفكر العربي ما يسمونه بـ(المعرفة) ، ويفهم من المقابلة بينها وبين (الصناعة) أنها علم يحصل بمجرد التحصيل دون اشتراط التمرن ، ويتضح الفرق بينهما إذا فرقنا بين تقطيع أبيات القصيدة مثلًا ، ومعرفة معاني هذه الألفاظ ، فالأول : صناعة ؛ لأنه مبني على قواعد لا بد من التمرن على تطبيقها ، على حين يكفي لمعرفة معاني الأبيات أن نصل إليها فرادى ونتذكر ما تعلمناه من ذلك دون أن يخضع الأمر للقواعد(٢) ، وهذا الاتجاه التقابلي بين المصطلحات لم يرق لابن خلدون ؛ لأنه عقد فصلًا خاصًا لتوضيح هذه المسألة العلمية فقال بالنص الصريح : ((إن ملكة هذا اللسان غير الصناعة العربية ومستغنية عنها بالتعليم)) (٣) .

وقد مثّل ابن خلدون بأمثلة تشبيهًا بمن يعرف صناعة من الصنائع علمًا ، ولا يكاد يحكمها عملاً كالخياطة والنجارة ، ومثله مثل العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة نفسها فان العلم بقوانين الإعراب إنما هو بكيفية العمل وليس هو نفس العمل ، ولذلك تجد كثيرًا من جهابذة النحاة ، والمهرة في الصناعة العربية المحيطين علمًا بتلك القوانين إذا سئل عن كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودته أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب ، وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي ، وكذا نجد كثيرًا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين : المنظوم والمنثور ، وهو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول ، ولا المرفوع من المجرور ،

(١) ينظر : أبحاث ونصوص في فقه اللغة : ٢٣ .

(٢) ينظر : الأصول : ١١ .

(٣) تأريخ ابن خلدون : ١ / ٤٩١ .

ولا شيئًا من قوانين صناعة العربية في هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير الصناعة العربية وأنها مستغنية عنها بالجملة (١) .

وهذه القضية اللغوية التي يطرحها ابن خلدون قضية ذات أهمية بمكان ؛ إذ ان مناهج حديثة قامت على أساسها ، واتجاهات شقت طريقها من خلالها ، فالمنهج البنائي في دراسة اللغة الذي ظهر في أوربا بعد عام ١٩١٦ م الذي طرح منهجه الخاص في البحث الألسني .

فقد حصر (سوسير – البنيوي –) التقعيد باللسان من النواحي (الصوتية ، الصرفية ، التركيبية ، الدلالية) وجعل (اللسان) على وفق هذه النظرية السويسرية : نتاج اجتماعي يتقبله الفرد ويخضع لقوانينه على الرغم منه ، فالفرد ليس حرًا في الاختيار ؛ لأنه واحد من المجتمع مستظل بقوانين لغته ، ولذلك يرى (سوسير) أن اللسان قوالب جاهزة مركبة في عقول أفراد المجتمع تكتسب اكتسابًا ، وأما اللغة فهي ملكة توهب للإنسان (٢) .

ولا يغادر ابن خلدون هذا الكلام عن هذا الموضوع من دون أن يضع لنا (تدريبات) – إن صحّ التعبير – لتطوير ملكة اللسان، لأن الانسان لا يستحوذ على اللسان إلا بالدربة والمران (٣) .

فيدلي ابن خلدون نصيحته لمن يبتغي ملكة اللسان ويروم تحصيلها ليكون تعلمها ممكنًا بقوله : ((أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضًا في سائر فنونهم حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ، ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاه وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويزداد بكثرتهما رسوخًا وقوةً ، ويحتاج من ذلك إلى سلامة الطبع والتفهم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال والذوق يشهد بذلك)) (٤) .

ثالثًا : إصابة ملكة (اللسان) بالعجمة

يرى ابن خلدون أنه إذا تقدمت في اللسان ملكة العجمة ، صار مقصراً في اللغة العربية وذلك أن الملكة إذا تقدمت في صناعة بمحل ، فقل أن يجيد صاحبها ملكة في صناعة أخرى (٥) .

---

(١) المصدر نفسه : ١ / ٤٩٢ .

(٢) ينظر : أبحاث ونصوص في فقه اللغة : ١٢ – ١٣ .

(٣) ينظر : علم اللغة بين التراث والمعاصرة : ٢٨ .

(٤) تأريخ ابن خلدون : ١ / ٤٩١ .

(٥) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٤٨٧ .

ومعنى كلام ابن خلدون أن اللغة ملكة ، أي أنها نظام يكتسبه الإنسان من المجتمع بالفطرة ، ويكوِّن من خلاله (حسًا) يتمكن من خلاله معرفة الجمل الصحيحة والنطق السليم التي تتناسب مع قواعد تلك اللغة ، ويستهجن التراكيب أو النطق الذي لا يوافق ذلك النظام .

وبما أن اكتساب اللغة ملكة وليست صناعة ، فإن محاولة تعلم لغة أخرى (ملكة أخرى) يفسد الملكة الأولى (تعلم اللغة الأم) وينشأ عن ذلك حالة وسطية ممتزجة من هذه وهذه.

ويرجع ابن خلدون سبب فساد الملكة اللغوية عند العرب في العصور السابقة إلى أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد ، أي : طرق التعبير عن المعاني ، كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب ، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ويسمع كيفيات العرب أيضا ، فأختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى ، وهذا معنى فساد اللسان العربي (١) .

والأمثلة التاريخية كثيرة فقد غلبت العجمة على اللسان العربي حينما اختلط العرب بالبرابرة تكون لغة أخرى ممتزجة ، والعجمة فيها أغلب ، ومن أمثلة ذلك كما يرى ابن خلدون تغير نطق حرف القاف حيث أصبح ينطق قريبا من حرف الكاف على منهج البربر في كلامهم .

المطلب الثاني
اللغة

أولًا : تعريف اللغة

يرى ابن خلدون أن (اللغة) هي ملكة لسانية يكتسبها الإنسان بالتلقين من الأبوين والمجتمع ، حتى تصبح ملكة كسائر الملكات الإنسانية كالخط والرسم والشعر (٢) .

وحين تنازع الباحثون والدارسون قديمًا وحديثًا في خلافهم على الاصطلاح على الموضوعات اللغوية بعدة تسميات ، كما هو الحلال في اختلافهم في مصطلح (فقه اللغة) و (علم اللغة) ، فنجد أن ابن خلدون يختار للغة أن تكون (علمًا) (٣) ، لأن علم اللغة يعني : دراسة اللغة دون غيرها – من وجوه النشاط الإنساني – دراسة علمية ، تقوم على منهج علمي (٤) .

---

(١) ينظر : المصدر السابق : ١ / ٤٨٧ .

(٢) ينظر : تاريخ ابن خلدون : ١ / ٤٨٧ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٤٨١ .

(٤) ينظر : مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة : ٣٩ .

ولم يتطرق ابن خلدون لمصطلح (فقه اللغة) إلا عندما ذكر كتابًا للثعالبي موسوم بهذا الاسم ، وهذا الكتاب عبارة عن معجم خاص جمع فيه مؤلفه الألفاظ المتصلة بموضوع واحد ، ورتبها بحسب الموضوعات (١) ، ولذا قال عنه ابن خلدون : ((وهو آكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن يحرف استعمال العرب عن مواضعه ، فليس معرفة الوضع الأول بكافٍ في التركيب حتى يشهد له استعمال العرب)) (٢) .

فعلى هذا عرّف ابن خلدون اللغة بقوله : ((إعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده ، وتلك العبارة فعل لساني فلا بدَّ أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان ، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم)) (٣) .

(١) ينظر : مدخل إلى علم اللغة : ١٨٣ .

(٢) ينظر : تاريخ ابن خلدون : ١ / ٤٨٣ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٤٧٩-٤٨٠ .

ثانيًا : موارد اللغة ومظانها

رأى ابن خلدون أن حفظ اللغة وجعها هي الطريقة المثلى للمحافظة على اللسان العربي ، فقد أشاد بفضل السبق في ذلك للخليل بن أحمد الفراهيدي ت ١٧٥ هـ ، وأظهر إعجابه بمنهج تقليب الحروف وحصر مركباتها في معجم العين ، وهذا الإعجاب يمثل نقلة علمية نقدية لطريقة الخليل في معجمه ، فالعلماء في عصر الخليل وبعده حتى القرن الرابع الهجري وصفوا المنهج بالصعوبة وعسر الطريقة ، ثم إن النظرة بعد ذلك قد اختلفت كليًا فوجدنا جملة من اللغويين يلتزمون طريقة الخليل ويقتدون به فيما صنع ، واطلعنا على معاجم حذت حذو العين ، وسارت على خطاه في التنظيم والترتيب والتقليب والتفسير (١) .

ولذا كان ابن خلدون واحدًا من المعجبين والمهتمين بالخليل ومعجمه ومنهجه فقد ذكر تريب الكتاب بالتفصيل وتنقلات النظام الصوتي فيه ، وجهود العلماء من بعده في اختصاره وتهذيبه حتى وصفه بقوله : ((وضمن الخليل ذلك كله في كتاب العين واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه)) (٢) .

وقد اختلف بعض مؤرخي العرب كالطبري وابن خلدون والمسعودي وغيرهم في مرجعية هذه اللغة وأصولها ، ويبدو لي أنه إذا كان الطبري يختلف ويتناقض بين صفحة وأخرى ، فإن ابن خلدون يختلف ويتناقض بين سطر وآخر من الصفحة نفسها استمع وهو يقول : ((وثبت أن أباه قحطان – يعني القحطانيين – كان يتكلم بالعربية ولقنها عن الأجيال قبله فكانت لغة بنيه ولذلك سموا العرب المستعربة ...)) (٣) . فقحطان إذن كان يتكلم العربية ، وهي لغته التي ورثها ونشأ عليها و (لقنها) ممن مضى من آبائه ، وكما انتقلت إليه ممن قبله ، فقد انتقلت منه إلى بنيه بعده ، ورغم أن ابن خلدون لم يعرض ولم يشر إلى أول من تكلم العربية ، لكنه على الأقل أوضح أن قحطان كان يتكلمها لأن أسلافه كانوا يتكلمونها فالعربية ومن يتكلمونها سبقوا قحطان في الوجود.

غير أنك ما تكاد تنتهي من قراءة آخر كلمة في هذا المقطع من كلام ابن خلدون في الصفحة نفسها والسطر نفسه ، حتى تفاجأ بما ينقض ما قال حين تقرأ بعده مباشرة : ((ولم يكن في آباء قحطان من لدن نوح عليه السلام إليه – يعني قحطان – من يتكلم العربية ، وكذلك كان أخوه فالغ وبنوه إنما يتكلمون بالعجمية)) (٤) ، وابن خلدون الذي فاق كل من سبقوه ربما ومن لحقوه ، في سطر واحد أثبت فيه ونفى من أمر هذه اللغة .

---

(١) ينظر : المعجم العربي من التهذيب الى لسان العرب ، د . رشيد عبد الرحمن العبيدي ، مجلة أبحاث المعجمية العربية : ١٢٦ – ١٢٧ .

(٢) تأريخ ابن خلدون : ١ / ٤٨٢ .

(٣) المصدر نفسه : ٢ / ٣٣ .

(٤) المصدر السابق .

ثالثاً : وظيفة اللغة

من خلال منهج البحث وطرائق الاستقصاء داخل شبكة النسيج المعرفي في الفكر العربي عن ابن خلدون نتوصل إلى حقيقة هي ثمرة أصولية تولدت عن رؤية تجريبية (اختبارية) تتجسد في (تواتر الطرح اللغوي) (١) وهي ما عبر عنها بقوله : ((لم تنفك تزدوج في المقدمات الأصولية وظيفتان لسانيتان : وظيفة الأداء البلاغي ، ووظيفة الحديث باللغة عن اللغة)) (٢) .

إن وظيفة اللغة تكمن في كونها لغة الثقافة وهي العربية ، لذا فإن القدماء الذين كان حملة العلم فيهم (أكثرهم العجم) كما قال ابن خلدون (٣) ، فإن القدماء كانوا يشعرون أنهم لم يكونوا يخاطبون إلا قراء يتقنون العربية ، وإنهم بالتالي عندما ينقلون النص إلى هذه اللغة ، فإنهم يرقون به إلى لغة الثقافة .

فابن خلدون لا يتجاهل النصوص اللغوية في تحليلاته الاجتماعية التي حفلت بها أصول كتابه التاريخي ومقدمته الفلسفية ؛ فبخصوص ظاهرة الترف وانحلال الحضارات يسوق ابن خلدون النص القرآني في الآية المناسبة في تأكيد العلاقة الوثيقة بين البرهان والبيان في الثقافة العربية الإسلامية □وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً □ (٤) .

كان ابن خلدون أول من لفت إلى أن (ثقافة الهزيمة) من حيث وظيفتها اللغوية التي لها لغة ومفردات ومصطلحات تتجلى في ممارسات النخبة التي تكون عادة شديدة التماس مع كل ما هو فكري أو ثقافي أو سياسي ، واعتبر (التطبيع الثقافي) من أبرز تجليات العلاقة بين (الغالب والمغلوب) لاسيما في مفردات الحياة اليومية كالمأكل والمشرب والملبس ، وطريقة الكلام والتفكير ، والعقائد والفلسفات ، وهي علاقة ليست حوارية وإنما علاقة تبعية وتقليد وإذعان ، وهي المحطة الأخيرة في سلسلة الانكساريات المتتالية أمام الغالب ، التي تبدأ بالهزيمة العسكرية ، لتنتهي بالتسليم بالهزيمة الثقافية ، ويرجع ذلك ابن خلدون إلى أن (المغلوب عادة ما يعتقد الكمال في الغالب المنتصر) (٥) .

---

(١) ينظر : مجلة الإنماء العربي ، السنة (٢) العدد (١٦) : ٨ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) تاريخ ابن خلدون : ١ / ٤٧٧ .

(٤) سورة الإسراء : ١٦ .

(٥) ينظر : تاريخ ابن خلدون : ١ / ١٢٩ وما بعدها .

المطلب الثالث

النحو

أولاً : نشأة النحو

تساءل ابن خلدون كيف وضعت قواعد علم النحو؟ وكيف فكر العرب في المحافظة على اللغة ونطقها ؟ بعد أن فسدت ملكات النطق السليم لديهم فيقول : فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردةً ، شِبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ، ويلحقون الأشباه بالأشباه ، مثل أن الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب، والمبتدأ مرفوع ، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات ، فاصطلحوا على تسميته إعراباً ، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملاً ، وأمثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم (١) .

وذكر بعضً من تأريخ تلك النشأة فتحدث عن أول من كتب في هذا العلم : أبو الأسود الدؤلي ت ٦٧ هـ ، بإشارة من علي بن أبي طالب □ لما رأى من تغير الملكة فأشار عليه بحفظها ففزع إلى ضبطها بالقوانين ثم كتب فيها الناس من بعده (٢) .

فق قيل أن عليَ بن أبي طالب □ ألقى على أبي الأسود شيئًا من أصول هذا النحو ثم قال له : انحُ هذا النحو ، فسمي هذا الفن نحوًا (٣) .

ولقد بذل النحاة جهدًا عظيمًا في تتبعهم كلام العرب ، وكان غرضهم حماية العربية والسعي إلى استقرارها ، ففزعوا إلى ضبطها بالقوانين المستقراة من كلام العرب (٤).

ثانيًا : الخلاف النحوي

تكلم ابن خلدون في التأليف النحوي ، وأشار إلى الخلاف بين أهل البصرة والكوفة في هذا الجانب موضحًا التباين بين طرائق المتقدمين في تناول هذا الفن ومناهجهم فيه كالبصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين (٥) ، ولم يشر إلى ما اصطلح عليه بـ(المدرسة)، وابن خلدون شأنه شأن القدماء الذين لم يستخدموا مصطلح (مدرسة)، وإنما اتبعوا في نسبتهم إلى البلد الذي ظهرو فيه وتعلموا نحوه ، ودرسوا دروسه .

ومن الواضح أن الخلاف حول المسائل النحوية لا ينهض مبررًا لدعوى وجود مدارس نحوية ، لأن أصحاب المدرسة الواحدة يختلفون حول المسألة الواحدة تأويلًا وتخريجاً ولكن أصولهم واحدة ، ولذلك كانت عناية كتب

---

(١) ينظر : تاريخ ابن خلدون : ١ /٤٨٠ .

(٢) ينظر : المصدر نفسه .

(٣) ينظر : من تاريخ النحو : ٢٧ .

(٤) ينظر : تاريخ ابن خلدون : ١ / ٤٨٠

(٥) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٤٨١ .

الخلاف النحوي ينصب في العادة على (مسائل) الخلاف دون الخلاف حول (أصول) الخلاف كالسماع والقياس والاستدلال .. الخ (١) .

وفي هذا يقول ابن خلدون : ((ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة المصرين القديمين للعرب ، وكثرت الأدلة والاحتجاج بينهم ، وتباينت الطرق في التعليم ، وكثر الاختلاف في إعراب كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين)) (٢) .

ثالثًا : التأليف النحوي

تطرق ابن خلدون إلى مجموعة من المؤلفات النحوية ووقف عند بعضها ، وأطال التعليق والمدح والثناء بكتاب : (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) للشيخ جمال الدين بن هشام الأنصاري ت ٧٦١ هـ ، فقال عنه : ((وصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها ، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة ، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل ، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسماه بالمغني في الإعراب ، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها ـ وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظم سائرها ، فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها ، ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جنيّ واتبعوا مصطلح تعليمه ، فأتى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه)) (٣) .

وقد استغرب بعض العلماء عن هذا التغالي الشديد والثناء العريض على مصنف المغني لابن هشام من قبل ابن خلدون ، وما سر ذلك ؟ كما هو حال الدماميني شارح المغني ، ويذكر أن ابن خلدون قال مرةً : ((ما زلنا – ونحن بالمغرب – نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له : ابن هشام ، أنحى من سيبويه)) (٤) .

وينقل الأمير في حاشيته على المغني أن ابن خلدون قال مرة لولد ابن هشام في مجلس : ((لو عاش سيبويه لم يمكنه إلا التلمذة لوالدك ، والقراءة عليه)) (٥) .

ولعلّ من أسباب اهتمام ابن خلدون بابن هشام ما يأتي : –

١– أن كتاب ابن هشام كتاب نحوي رزق الشهرة في حياة المصنف وعرفه أهل المشرق وأهل المغرب (٦).

٢– أنه حظي بخدمة بعد وفاته فكثرت عليه الشروح والحواشي (١) ، ومنها (٢) :–

---

(١) ينظر : الأصول : ٤١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون : ١ / ٤٨٠ – ٤٨١ .

(٣) المصدر نفسه : ١ / ٤٨١ .

(٤) ينظر : من تاريخ النحو : ١٩٠ .

(٥) ينظر : حاشية الأمير على المغني : ٢ / ٢٦ . \

(٦) ينظر : بغية الوعاة : ٢ / ٦٨ .

أ – شرح المغني ، للدمياطي ت ٨٢٧ هـ .

ب – المنصف من الكلام على مغني ابن هشام ، للشمني ت ٨٧٢ هـ .

ج – شرح شواهد المغني ، للسيوطي ت ٩١١ هـ .

د – شرح أبيات مغني اللبيب ، لعبد القادر البغدادي ت ١٠٨٩ هـ .

هـ– حاشية الدسوقي على مغني اللبيب ، لابن عرفة الدسوقي ت ١٢٣٠ هـ .

و – حاشية الأمير على مغني اللبيب ، لمحمد بن محمد الأمير ت ١٢٣٢ هـ .

٣– نظرة ابن خلدون الكلية عن أثر العمران لصاحب المعرفة التي تتحدى الفكر لاسيما وأنه مهّد لشهادته عن ابن خلدون بسطر واحد قال فيه : ((وقد كادت هذه الصناعة – أي : النحو – أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران)) (٣) .

فقد نحت ابن خلدون لنفسه هذا المجهر المكبر فشحنه بعدسات اختبارية متكاثفة كانت له منطلقات في البحث التجريبي وسندات في الكشف التجريدي ... فكان طبيعيًا أن تأتي نظرية ابن خلدون في اللغة مجمع الرؤى الاختبارية لهذا المفهوم الفكري (٤) .

المطلب الرابع

البيان

أولًا : التعريف بالبلاغة

تصنف البلاغة حسب ابن خلدون ضمن علم البيان الذي يبحث فيه مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة ذلك عن هذه الهيئات والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال (٥) .

ومعنى هذا أن البلاغة أولت الاهتمام للحقيقة ، فهي تتمظهر كبيان لإعلاء المعنى وكشفه ، وإيضاح قوة التطابق بين اللفظ ومقتضيات الحال ، وهي لا تنفتح على الاستعارة إلا بوصفها دليلا على التشابه لا الاختلاف ، وليس التشبيه في البلاغة إلا قياسا للفرع على الأصل ، والطباق ذاته ليس إلا سبيل للتطابق مادام الاختلاف بينهما خارجيا فقط ، فالشيء لا يخالف الآخر في ذاته ، بل إن كلا منهما مطابق لذاته .

---

(١) ينظر : من تاريخ النحو : ١٩٢ .

(٢) ينظر : البحث والمكتبة : ١٥٨ .

(٣) ينظر : تاريخ ابن خلدون : ١ / ٤٨١ .

(٤) ينظر : الأسس الاختبارية لنظرية المعرفة عند ابن خلدون : ٢١ .

(٥) ينظر : تاريخ ابن خلدون : ١ / ٤٨٤ .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن البلاغة هي بيان الحقيقة فقد يعني ذلك : أن الحقيقة هي تطابق الشيء مع المعرفة ، كما يمكن أن يفهم أيضا على الوجه التالي : الحقيقة هي تطابق المعرفة مع الشيء .

ثانيًا : المدارس البلاغية

اتجهت الدراسات البلاغية منذ وقت مبكر إلى اتجاهين هما (١) :-

١. المدرسة الكلامية :

ظهرت نتيجة الأثر الكبير لعلوم الفلسفة والمنطق في الثقافة الإسلامية والعربية ، وقد بلغت أوج تأثرها في القرن السادس الهجري وما بعده ، وشاعت في المناطق الشرقية من الدولة الإسلامية حيث الفرس والترك وغيرهما .

٢. المدرسة الأدبية :

وقد ظهرت نتيجة التأثر بالقرآن الكريم الذي طبع بحوث البلاغة بطابع أدبي ، ويتجلى ذلك في كثرة الشواهد التي اقتبسها البلاغيون من كتاب الله ، ومن أوائل الكتّاب الذين شاركوا في التأليف لمنهج هذه المدرسة ابن المعتز ت ٢٩٦ هـ في كتابه البديع ، وتواجدت هذه المدرسة في بيئات عربية كالعراق والشام ومصر والمغرب .

وقد لاحظ ابن خلدون هذا المنهج على هذه المدرسة البلاغية في بلاد المغرب فقال : ((... وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة ، وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية ، وفرّعوا له ألقابًا ، وعدّدوا أبوابًا ، ونوّعوا أنواعًا ، وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب ؛ وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ ، وإن علم البديع سهل المآخذ)) (٢) .

وقد اتهم ابن خلدون المغاربة بأن مسائل البيان في البلاغة صعبت عليهم لدقة أنظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما (٣) .

وهذا الكلام غير دقيق على إطلاقه فيجب أن يعلم أن كثيرًا من مسائل علم البيان كانت متداخلة في البديع في عهد ابن خلدون .

ثالثًا : التأليف البلاغي

وقد حاول بعض العلماء أن ينالوا من جهد المغرب في البلاغة ، وهوّنوا من شأن البلاغيين المغاربة ومن ذلك ما قاله ابن خلدون :

---

(١) ينظر : البحث البلاغي عند العرب : ٥٥ .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ١ / ٤٨٥ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه .

((وبالجملة فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة ، وسببه – والله أعلم – أنه كمالي في العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد في العمران ، والمشرق أوفر عمرانًا من المغرب كما ذكرناه ، أو نقول لعناية العجم وهو معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري ، وهو كلّه مبني على هذا الفن)) (١) .

ولقد عرف المغرب الإسلامي في تاريخه اللغوي عددًا لا بأس به من الأعلام الذين طارت لهم شهرة في مجال البلاغة شرقًا وغربًا (٢) .

وقد ردّ الأستاذ محمد بن تاويت هذا التصور عن بلاغة أهل المغرب بقوله : ((نجد ابن خلدون يجعل ضمن المغرب أفريقية والأندلس ، ويحكم بذلك الحكم الذي عممه في التعليل ، وإن لم يكن فيما يخص العمران صادقًا على الأندلس ؛ لأن المشرق ما كان أوفر عمراناً منه ، خصوصًا في عهد ابن خلدون وفيما سبقه من العهود التي كان العمران قد استبحر فيه وطفح بأعاريبه ، كما إن إطلاق ذلك الحكم على عواهنه ليس صائبًا كله ؛ وإلا لتركنا ابن شهيد وأضرابه كابن حزم على جانب من الإجحاف وهضم الحقوق)) (٣) .

ويمكن أن نفسّر فكرة ابن خلدون التي أخذها على أهل المغرب من خلال ما يأتي :-

إن الأدب المغربي كله شعرًا ونثرًا ونقدًا لم يكن صدى للأدب الأندلسي ؛ ذلك أن الأدب الأندلسي نفسه كان يبحث عن هوية له في المشرق ، فقد كان كتاب المغرب وشعراؤه يعجبون بأدب المعرّي والمتنبي وغير هذين من الشعراء ، وقد كان أدباء المغرب كتابًا وشعراءَ ونقادًا يشربون من بئر الأدب المشرقي (٤) .

من المعلوم أن النقد الأدبي قد تطور عبر اتجاهات متعددة وكان أبرزها اتجاهين وهما : اتجاه استمد أصحابه كثيرًا من الأقيسة المنطقية والتقاسيم الفلسفية ، واتجاه آخر نحو الدراسات البلاغية التي نمت في حضن الدراسات القرآنية (٥) ، وكلا الاتجاهين يعدان من التيارات المشرقية ، وقد ظل النقاد المغاربة والأدباء الأندلسيون يتأرجحون بين هذه التيارات .

أثر الوافدين من المشرق إلى بلاد المغرب ودورهم في صبغ بعض وجوه الحياة المغربية بصبغة مشرقية ، ونقل بعض القيم الفكرية والحضارية وتوجيه الدراسات الأدبية وجهة معينة (٦) .

---

(١) ينظر : المصدر نفسه .

(٢) ينظر : التأليف البلاغي في أقطار المغرب الإسلامي : ١٨ .

(٣) ينظر : مجلة المناهل : العدد (١٩) السنة (٧) : ٣٠٥ .

(٤) ينظر : القاضي عياض الأديب : ٣٢١ .

(٥) ينظر : المصدر نفسه : ٣١٠ .

(٦) ينظر : التأليف البلاغي في أقطار المغرب الإسلامي : ٧ .

إن عامل التأثر بالشرق ، وبكل ما هو مشرقي إنما هو لمرحلة زمنية معينة ، يوم أن كان المغربيون مكتفين بما يَرْوِهم من المشرق من شخصيات ومؤلفات وغيرهما ؛ لكن لمّا أنجب المغرب العلماء في كل فن ، وأنتج التصانيف في كل علم تجلى شعور مغربي وإحساس واضح بضرورة الابتكار والإبداع والتأليف وكذا في العادات والتقاليد إلى أنْ كان للمغرب خصائصه وعلماؤه وآثاره (١) .

المطلب الخامس

الأدب

أولًا : التعريف بعلم الأدب وأقسامه

جعل ابن خلدون علم الأدب ثمرة اللسان من حيث الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ، وذكر حدَّ هذا الفن بقوله : ((هو حفظ أشعار العرب وأخبارها)) (٢) .

وقد نقل لنا ابن خلدون عن شيوخه من مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي (٣) :-

أدب الكاتب لابن قتيبة ت ٢٧٦ هـ .

الكامل للمبرد ت

)□□ا

dž□□가□ á □ □ قلليتـدص□□ □ ٨ (ȝ□

□ dž□□□dž□□□dž가□□

dž□□□dž□□□dž가□□dž□□가□ á □ □ jpg.٥٢ydnaś

□ dž□□□dž□□□dž가□□dž□□가□ á □ □

dž□□□dž□□□dž가□□dž□□가□ á □ □ jpg.٥٢ydnaś

dž□□□dž□□□dž가□□dž□□가□ á □ □ jpg.٥٢sandý

□

dž□□□dž□□□dž가□□dž□□가□ á □ □ jpg.٥٢sandý

□١٦٢

dž□□□dž□□□dž가□□dž□□가□ á □ □ jpg.٥٢ydnaś

□

□dž□□□dž가□□dž□□가□ á hX □ □ jpg.٥٢sandý

---

(١) ينظر : المصدر نفسه : ٨ .

(٢) ينظر : تاريخ ابن خلدون : ١ / ٤٨٦ .

(٣) ينظر : المصدر نفسه .

(٤) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٤٩٧ .

□ dž□□

□dž□□□dž가□□dž□□가□ á hX □ □ jpg.٥٢sandy″

□ dž□□

dž□□□dž□□□dž가□□dž□□가□ á □ □ jpg.٥٢sandy″

□

□dž□□□dž가□□dž□□가□ á hX □ □ jpg.٥٢sandy″

□ dž□□ رته الكليـة إلى ملكـة اللسـان □ □ jpg.٥٢sandy″

فإنه يرى إذا تسب□ت إلى محله ملكة أخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة (١) .

dž□□□dž□□□dž가□□dž□□가□ á □ □ jpg.٥٢sandy″

□

□dž□□□dž가□□dž□□가□ á hX □ □ jpg.٥٢sandy″

□ dž□□

□dž□□□dž가□□dž□□가□ á hX □ □ jpg.٥٢sandy″

□ dž□□

dž□□□dž□□□dž가□□dž□□가□ á □ □ jpg.٥٢sandy″

□

□dž□□□dž가□□dž□□가□ á hX □ □ jpg.٥٢sandy″

□ dž□□ رته الكليـة إلى ملكـة اللسـان □ □ jpg.٥٢sandy″

فإنه يرى إذا تسب□ت إلى محله ملكة أخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة (١) .

□dž□□□dž가□□dž□□□dž □

dž□□□dž□□□dž가□□dž□□가□ á □ □ jpg.٥٢sandy″

□

□dž□□□dž가□□dž□□가□ á hX □ □ jpg.٥٢sandy″

□ dž□□ رته الكليـة إلى ملكـة اللسـان □ □ jpg.٥٢sandy″

فإنه يرى إذا تسب□ت إلى محله ملكة أخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة (١) .

□가□□dž□□가□□dž□□□dž □

□dž□□□dž가□□dž□□가□ á hX □ □ jpg.٥٢sandy″

(١) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٤٩٨ .

(١) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٤٩٨ .

(١) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٤٩٨ .

□□dž□ □ jpg.٥٢sandy″ □ □ رته الكلية إلى ملكة اللسان

فإنه يرى إذا تسب□ت إلى محله ملكة أخرى قصرت بالمحل عن تمام الملكة اللاحقة (١) .

(١) ينظر : المصدر نفسه : ١ / ٤٩٨ .

ثانياً : من معالم المنهج الأدبي العام عند ابن خلدون(١) .

الشعر فن لغوي يوجد في سائر اللغات ، ولكل لسان أحكام في بلاغته .

علم العروض وصناعة البحور عهدت عن العرب وحصرت في خمسة عشر بحرًا ، وجع□وا الشعر ديوانًا للعرب .

إن صناعة النظم والنثر إنما هي في الألفاظ لا في المعاني .

إن حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ ، وجودتها بجودة المحفوظ .

تعرض لموضوع انتحال الشعر وتقوله على العرب

ثالثاً : المادة الأدبية عند ابن خلدون

بعد إطلاعي المتواضع على المادة ا□أدبية عند ابن خلدون وجدتها تصلح في بحث علمي متخصص ومستقل ويمكن تأهيله لدراسة إمكانية تناوله في رسالة جامعية عليا، إذ إن شواهده الشعرية أكثر من مائتي شاهد في الفصول المتعلقة بالأدب التي عقدها في كتابه ، فضلًا عن الآراء التي تبناها بهذا الشأن ، والقواعد الت□ قننها لهذا الفن ، والاستنتاجات التي توصل إليها في هذه الموضوعات .

وإنما اكتفيت بالإشارة من دون التعليق على هذا المطلب ، ولم ينل مني الجهد المبذول في المطالب المتقدمة ؛ وذلك لأسباب منها :-

١- المحافظة على تخصصي الدقيق (اللغة / فلسفة) وعدم التجاوز على أخو□ي المتخصصين في الجوانب الأدبية .

٢- فتح المجال لطلبة العلم بأن ينهلوا من علوم ابن خلدون ذات الثراء المعرفي في مختلف التخصصات .

٣- مواصلة الدعم العلمي لهذه الشخصية المباركة في الأيام القادمة من خلال الفراغات التي لم تنل نصيبها من البحث والدراسة في شخصية ابن خل□ون .

٤- هذا ومسك الختام مع أطيب الأماني لكل من شارك بقلمه وفكره في مختلف المشاريع العلمية نحو رجالات الأمة العظام وقادتها الكبار ، فجزا الله العلماء العاملين وطلبة علمهم المخلصين خير الجزاء ومن الله التوفيق .

---

(١) ينظر : تاريخ ابن خلدون : ١ / ٤٩٧ وما بعدها .

المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم :

أبحاث ونصوص في فقه اللغة العربية ، د . رشيد عبد الرحمن العبيدي ، مطبعة التعليم العالي ، بغداد ، ١٩٨٨ م .

الأصول – دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب – ، د . تمام حسان ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٨ م .

البحث البلاغي عند العرب ، د. أحمد مطلوب ، الموسوعة الصغيرة (١١٦) ، دار الجاحظ للنشر ، دار الحرية للطباعة ، بغداد – العراق ، ١٩٨٢م .

البحث والمكتبة ، د. نوري حمودي القيسي و د. حاتم صالح الضامن ، بيت الحكمة ، بغداد ، ١٩٨٨ م .

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، لجلال الدين السيوطي ت ٩١١ هـ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ، ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م .

التأليف البلاغي في أقطار المغرب الإسلامي ، للسملالي زكية ، رسالة جامعية من جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس ، ١٩٨٢–١٩٨٣م .

تاريخ ابن خلدون المسمى بـ(كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) ، لعبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المغربي ت ٨٠٨ هـ ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م .

تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، ١٩٧٢ م .

تفسير البيضاوي المسمى بـ(أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ، للقاضي ناصر الدين البيضاوي ت ٦٨٥ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط / ١ ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

التفكير ، لتقي الدين النبهاني ، طبعة معتمدة ، ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣ م .

حاشية الأمير على المغني ، لمحمد بن الأمير ط / حجازي ، القاهرة ، ١٣٧٢ هـ .

العلم والعلماء ، لأبي بكر الجزائري ، دار الكتب السلفية ، القاهرة ، ١٤٠٣ هـ .

القاضي عياض الأديب ، عبد السلام شقور ، دار الفكر المغربي ، ط / ١ ، ١٩٨٣ م .

مباحث في علم اللغة واللسانيات ، د. رشيد عبد الرحمن العبيدي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ٢٠٠٢ م .

مدخل إلى علم اللغة ، محمد حسن عبد العزيز ، القاهرة ، ب . ت .

من تاريخ النحو ، سعيد الأفغاني ، دار الفكر ، بيروت ، ب . ت .

مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة ، د. نعمة رحيم العزاوي ، مطبعة المجمع العلمي ، ١٤٢١هـ– ٢٠٠١ م .

المنطق المفيد (قسم التصورات) ، لمحمد عبد العزيز البهنسي ، مصر ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦ م .

موسوعة الفكر التربوي العربي الإسلامي (ابن خلدون وابن الأزرق) ، د. عبد الأمير شمس الدين ، الشركة العالمية للكتاب ، لبنان ، ط / ١، ١٩٩١ م.

نظرية المعرفة في مقدمة ابن خلدون ، د . ملحم قربان ، المؤسسة الجامعية ، بيروت ، ط / ١ ، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م .

المجلات :

مجلة الإنماء للعلوم الإنسانية ، العدد (١٦) ، السنة (٢) ١٩٨٠ م .

مجلة المناهل ، العدد (١٩) ، السنة (٧) ١٩٨٠ م .

مجلة المعجمية العربية ، المجمع العلمي العراقي ، ١٩٩٢ م .